اللواء ١١ تشرين الأوّل ٢٠١٨

شعراء ونقاد؟..

سألني صديق أديب، يصدقني الود، استسر عني زمنا: من أحببت من شعرائنا القدامى؟

أجبت: ثمة شاعران شغفت بهما فجعلتهما نبراساً اهتدي بنوره في أدبي وحياتي: أحدهما المتنبي الذي فتنني باعتزازه بشخصيته، وحرصه حتى في أشد مدائحه إسرافاً، على التعبير عن مكنون نفسه، وعن تجاربه ونظراته الصادقة في الحياة!.

والثاني: المعري الذي أثار بالغ إعجابي، لما ألفيت في شعره ونثره من فلسفة إنسانية صادقة، وحرص على كرامة الإنسان وكبره، وتصوير لموقفه من المجتمع والحياة والكون بوجه عام.

قال بعد تفكر: ومن أحببت من شعرائنا الجدد؟

قلت ضاحكاً: المغفلين..

قال واجماً وقد تربد وجهه غضباً: من؟

قلت في اطمئنان يشوبه حذر: المغفلين.. المغفلين.

قال وقد انفجر غيظه: وما مأتى إعجابك؟

قلت ساخراً: إنعدام مواهبهم، وغرورهم، وضعف تجاربهم وسقوطهم في حمأة تقليد الغربيين الأعمى في أساليبهم ومذاهبهم، واعتقادهم الخاطئ أن «تجديدهم» لا يصلح إلا به. لذا راحوا يتبعونهم في ما ينظمون حتى أمسوا كذاك المغفل..

ثم ما لبثت أن لزمت الصمت هنيهة، لا أنبس بحرف كيما أثيره... وإذ ألفاني مغرقاً في صمتي، لم يتمالك ان بدهني هاتفاً: ويحك... ما حكاية المغفل التي رمت بثها فأحجمت؟

قلت: أخشى ان تكرب نفسك!

قال مخافتاً من صوته وقد زايله الغضب: لا عليك.. إروها فلربما تناهيت عن الاعجاب بهم كما تناهيت أنت عنه!.

قلت بعد أن ساورني منه لين: زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تضرم الحطب فتنفخ فيه حتى يشتغل، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار، ولم تكن امرأته في دارها، فجاء بالحطب وأضرم فيه، وجعل ينفخ، والحطب رطباً فدخن ولم يشتعل، ففكر المغفل قليلاً، ثم ذهب فلبس ثوب امرأته، وعاد إلى النار، وكان الحطب قد جف، فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرم، فأيقن المغفل أن النار تخاف امرأته، وأنها لا تتضرم إلا إذا رأت ثوبها!.

ما إن فرغت من رواية قصتي حتى رأيت صديقي الأديب وقد أطرق هنيهة لا يثير لحظاً ولا يحير لفظاً، فأحسست وأنا أرامقه كأن تارا تتسعر في أحشائه... ثم ما عتم أن هتف وقد استبدت به رعدة: ومن أحببت من «نقادنا» الجدد؟.

قلت وأنا أبسط له أسرة وجهي: ما لك ولهم؟ حسب ما أنبأتك برأيي في «الشعراء»!..

قال وهو يجسني بعينه: أردت أن أتعرف خبرهم!.

قلت ضاحكاً: الجهلاء السفهاء..

قال دهشاً وهو يكتم غضباً بان في وجهه: هل نقادنا عندك جهلاء سفهاء؟.

قلت مطمئناً: أجل.. ألم تر كيف افتنوا في الضلالة؟ ألم يبلغك بذاء ألسنتهم؟ ألم ينفثوا في سمعك أقوالاً يظهرون لك فيها شيئاً ويضمرون خلافه؟ ألم يشوهوا بجهلهم قواعد النقد الأدبي؟ دلني على «ناقد» فهم أن النقد محبة.. مبدأ أخلاقي يحياه ويؤمن به ويدعو إليه، ويكافح مخلصاً في سبيله؟..

ألم تقرأ قول تشيخوف: «تعال، اختلط، استغرق في الزحام، تنفس أدباً لكي تعرف كيف تنقد أدبا»، ملأوا صدور الصحف حقداً وسموه نقداً. قد يستزلمون لهذا أو ذاك من أثرياء الحروب والدهور ويوالون هذا النافذ أو ذاك فيتفاقم تحت ريشتهم المدح والتقريظ والتكريم الأجوف ظناً منهم أن كل ذلك يرتد عليهم مدحاً وتقريظاً وتكريماً ولو أجوف!.

الفكر الفاسد أو المغرض قد يصور لك الصغير كبيراً أو يصور الكبير صغيراً. وكثيراً ما ترى بُطل زعم أصحاب هذا الفكر وخطأ وهمهم وضحالة تفكيرهم واغترارهم بأنفسهم، ومن ثم سطوهم على آراء في النقد لم يهضموها أو يتمثلوها!.

لنتّق الجهل أو التجاهل والتقليد والغرور والسفه. أين الوزارات الرشيدة تعتقنا من ركود الحركة التي فيها بركة وضحالة الفكر وسخافة الثقافة وغلبة السفه وتكاثر «الدكاكين».

د. جهاد نعمان